الانتحار

- ٢ -

قال المسيَّب بنُ رافعٍ : وقام الشَّعبيُّ إلى الرَّجل ، فاعْتَنَقَهُ فَرَحاً بما آلَ أمرُه إليه ، بعد إذ رأى النُّورَ يجري على لونه ، ويترقرقُ في دِيباجته[1] ؛ كأنَّما وَقَعَ الصُّلحُ بين وجهه ، وبين الحياة . ثمَّ قال له : نِعْمَ أخو الإسلام أنت ! فاسْتَعِذْ بالله من خِذْلانه ، فإنَّه ما خَذَلَكَ إلا ضَعْفُكَ نفسَك بإزاءِ الله تعارِضُه ، أو تُجارِيه في قدرته ، فَيَكِلُكَ إلى هذه النَّفس ، فتنتهي بك إلى العجز ، وينتهي العجزُ بك إلى السَّخط ، ومتى كنتَ عاجزاً ، ساخطاً ، محصوراً في نفسك ، موكولاً إلى قدرتك ؛ كنتَ كالأسد الجائع في القَفْر ؛ إذا ظنَّ : أنَّ قوَّتَه تتناول خَلْقَ الفريسة ، فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ ، والانزعاجَ ، والكآبةَ ، وأمثالَها من هذه المُهلِكات تقْدَحُ في قلبك الشَّكَّ في الله ، وتُثبتُ في رُوْعِك شرَّ الحياة ، وتُهدي إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرِّر عندك عجزَ الإرادة ؛ فتنتهي من كلِّ ذلك ميِّتاً ، قد أزهقَتْك نفسُك قبل أن تُزْهِقَها !

ولو كنتَ بَدَلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حقَّ الإيمان ؛ لسلَّطك الله على نفسك ولم يسلِّطها عليك ؛ فإذا رمتْك المطامعُ بالحاجة ؛ الَّتي لا تقدر عليها ؛ رميتَها من نفسك بالاستغناء ؛ الَّذي تقدر عليه . وإذا جاءتك الشَّهواتُ من ناحية الرَّغبة المقْبلة ؛ جئتَها من ناحيةِ الزُّهد المنصرف ، وإذا ساوَرَتْك[2] كبرياءُ الدُّنيا ؛ أذْلَلْتَها بكبرياء الآخرة .

وبهذا تنقلب الأحزانُ ، والآلام ضُروباً من فَرحِ الفوز ، والانتصار على النَّفس ، وشهواتها ، وكانت فنوناً من الخِذْلان ، والهمِّ ، وتعود موضعَ فخرٍ ، ومباهاةٍ ، وكانت أسبابَ خِزْيٍ ، وانكسارٍ . وعزيمةُ الإيمان إذا هي قوِيتْ ؛ حَصَرَت البلاءَ في مقداره ، فإذا حصرتْه ، لم تزل تَنقُصُ من معانيه شيئاً ، شيئاً ،

---

(١) « ديباجته » : الديباجة للوجه : حُسْن بشرته .

(٢) « ساورتك » : ساورته الهموم والهواجس والأفكار : صارعَتْهُ .

فإذا ضعفتْ هذه العزيمة ؛ جاء البلاءُ غامراً[١] مُتَفشِّياً يُجاوِزُ مقدارَه بما يَصْحَبُه من الخوف والرَّوْع ، فلا تزال معانيه تَزيد شيئاً شيئاً بما فيه ، وبما ليس فيه .

وللإيمان ضوءٌ في النَّفس ينير ما حولها ، فتراه على حقيقته الفانيةِ وشيكاً أن يزول ، فإذا انطفأ هذا الضَّوء ؛ انْطَمسَت الأشياء ، فتتوهَّمها النَّفس أوهاماً مُتباينةً على أحوالها المختلفة ، كما يرى الأعمى بوهْمِه : لا عيْنُه مع الأشياء تكون في طبيعتها ، ولا أشياؤه عند عينِه تكونُ في حقيقتها .

* * *

قال المسيَّب : وكانت الشَّمسُ قد طفَّلَت[٢] للمغيب ؛ فقال الإمام للرَّجل : قم ، فتوضَّأ ، وأسْبغ الوضوء ، وسأعلِّمك أمراً تنتفع به في دينك ، ودنياك : فإذا قمتَ إلى وُضوئك ؛ فأيقِنْ في نفسك ، واعزِمْ في خاطرك على أنَّ في هذا الماء سرّاً روحانيّاً من أسرار الغَيب ، والحياة ، وأنَّه رمزٌ للسَّماء عندك ، وأنَّك إنَّما تتطهَّر به من ظلُمات نفسك التي امتدَّت على أطرافك ؛ ثُمَّ سَمِّ اللهَ (تعالى) مُفيضاً اسمَه القادرَ الكريمَ على الماء وعلى نفسك معاً ، ثُمَّ تَمثَّلْ : أنَّك غسلتَ يديك ممَّا فيهما ، وممَّا تتَعاطاه بهما من أعمال الدُّنيا ، وأنَّك آخِذٌ فيهما من السَّماء لوجهك ، وأعضائك ؛ وقرِّرْ عند نفسك : أنَّ الوضوء ليس شيئاً إلا مَسْحَةً سماويةً تُسبغها على كلِّ أطرافك ، ليشعرَ بها جسمُكَ ، وعقلك ؛ وأنَّك بهذه المَسْحَةِ السَّماوية تستقبلُ الله في صلاتك سماويّاً لا أرضيّاً .

فإذا أنت استشعرتَ هذا ، وعملتَ عليه ، وصار عادةً لك ؛ فإنَّ الوضوء حينئذٍ ينزل من النَّفس منزلةَ الدَّواء ، كلَّما اغتممتَ ، أو تكرَّهتَ ، أو تَسخَّطت ، أو غَشيك حزنٌ ، أو عَرض لك وَسْواسٌ ؛ فما تتوضَّأ على تلك النِّيَّة إلا غسلتَ الحياةَ ، وغسلتَ السَّاعةَ ؛ الَّتي أنت فيها من الحياة[٣] . وترى الماءَ تحسبه هدوءاً ليِّناً لِينَ الرِّضا ، وإذا هو ينسابُ في شعورك ، وفي أحوالك جميعاً .

قال المسيَّب : وقمتُ أنا ، فجدَّدتُ وضوئي على هذه الصِّفة بتلك النِّيَّة ؛ فإذا

(١) « غامراً » : كثيراً شديداً .
(٢) « طفلت » : طفلتِ الشمسُ : دَنَتْ للغروب .
(٣) هذه ـ في رأينا ـ حكمةُ تكرار الوضوء ، وتلك هي أسراره عندنا . (ع) .

أنا عند نفسي مستضيءٌ برُوحٍ نَجميَّةٍ لها إشراقٌ ، وسناءٌ ، وإذا الوضوءُ في أضعف معانيه هو ما عَلِمْنا من أنَّه الطَّهارةُ ، والنَّظافة ، أمَّا في أقوى معانيه ؛ فهو إفاضةٌ من السَّماء ، فيها التَّقديسُ ، والتزكيةُ ، وغَسلُ الوقتِ الإنسانيِّ ممَّا يخالطه كلَّما مرَّت ساعات ، وابتداؤه للرُّوح كالنَّبات الأخضر ناضراً ، مطلولاً[1] ، متَرطِّباً بالماء .

ثُمَّ صَلَّى بنا الشَّيخُ ، وأمرني بالمبيت مع الرَّجل ، كأنَّما خَشي البَدَواتِ أن تَبدُو[2] له ، فَتنقُضَ عَزْمَه ، أو هو زادني عليه ؛ لأُغيِّر شخصَه ، وأبدِّلَ وحدتَه ؛ الَّتي كان فيها ، أو كأنَّ الشَّيخ لم يأمن على الرَّجل أن يكون إنسانُه الرُّوحيُّ قد تنبَّهَ بأكمله ، فوضعني كالتنبيه له .

وجاءنا العَشاءُ من دار الشَّيخ ، فطعمنا ، ثُمَّ قال الرَّجل ، فتوضَّأ ، وصلينا العَتَمة[3] وجلسنا نتحدَّث ، فاستنبأته نبأه ، فقال : مهلاً . ثُمَّ نهض ، فتوضأ الثَّالثةَ ، وقال : تالله ما أعرفُ الوضوءَ بعد اليوم إلا ملامَسةً بين السَّماء والنَّفس ، وما أعرِف وقته من الرُّوح إلا كساعة الفجر على النَّبات الأخضر .

* * *

قال المسيَّب : وأصبحنا فغدونا على الإمام ؛ ثُمَّ لزمني الرَّجلُ في بعض أموري ، ثُمَّ وافينا المسجدَ صلاةَ العصر لحضور درس الشَّيخ ؛ وكان النَّاسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على العُنقود ، لا أدري مَنْ ساقَهم ، وجَمَعهم ؛ كأنَّما علمت الكوفةُ : أنَّ رجلاً مسلماً كفَرَ بالله كفرَةً صَلْعاءَ ، وأنَّه سيحضُر درس الشَّيخ ، وسيحضر الشَّيخ من أجله ، فهبَّتِ الرِّياحُ الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشَّيخ مجلسَ الحديث ، فقال :

رَوَينا : أنَّ رجلاً كانت به جِراحَةٌ ، فأتى قَرَناً[4] له ، فأخَذَ

(١) « مطلولاً » : مُنَدًّى بالطل . والطل : المطر الخفيف الضعيف الصغير القَطْر .

(٢) « تبدو » : بدا له في الأمر كذا : جَدَّ له فيه رأيٌ آخر . وهو ذو بَدَوات .

(٣) « العتمة » : صلاةُ العتمة : صلاة العشاء . قال ابنُ الأثير في كتابه : النهاية (٣/ ١٨٠) : كانت الأعرابُ يُسَمُّون صلاة العِشاء صلاةَ العَتَمَة ؛ تسميةً بالوقت ، فنهاهم ﷺ عن الاقتداء بهم ، واستحبَّ لهم التمسُّكَ بالاسم الناطق به لسانُ الشريعة .

(٤) « القَرَن » : ـ بفتحتين ـ جعبة النشاب . (ع) .

مِشْقَصاً[١] ، فذَبحَ به نفسَه ؛ فلم يُصَلِّ عليه النَّبيُّ ﷺ ، وترك جنازتَه[٢] مطرودةً ، تقتحم مَتْلفَةَ الآخرة ، كما اقتحمتْ متلفةَ الدُّنيا !

روينا في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « الَّذي يخنقُ نفسه يخنقُها في النَّار ، والَّذي يَطْعَنُ نفسَه يطعَنُ نفسَه في النَّار ، والذي يقتحم يقتحم في النَّار ! »[٣] .

روينا عنه ﷺ : « مَنْ قَتلَ نفسَه بشيءٍ عُذِّب به يومَ القيامة ! »[٤] .

روينا عنه ﷺ قال : « كان رجلٌ به جِراحٌ ، فقتل نفسه ، فقال الله : بَدَرني عبدي بنفسهِ ، فحرَّمتُ عليه الجنَّة ! »[٥] .

قال الشَّعبيُّ : يقول الله : « بَدَرَني عبدي بنفسه . . . » أيْ : بدرني ، وتألَّه ، فَجَعلَ نفسَه إلٰه نفسِه ، فَقبضَها ، وتَوفَّاها ، فكان ظالماً .

بَدَرني ، وتألَّه في آخرِ أنفاسِهِ لحظةَ ينقلبُ إليَّ ، فكان مع ظُلمِه مغروراً أحمق !

بدرني ، وتألَّه حين ضاق ، فَهوَّرَ نفسَهُ في الموت من عجزه أن يُمسِكَها في الحياة ، فكان عاجزاً مع ظُلمه ، وغُروره ، وحُمْقِه !

بدرني ، وتألَّه على جهله بسرِّ الحياة ، وحكمتها ، فلم يَسْتَحِ هذا المخلوقُ الظَّالم المغرور في حمقه ، وعجزه ، وجهله ، لم يستح أن يجيئني في صورة إلٰه !

بَدَرَني ، وتألَّه ؛ فَطبَع نفسَهُ طابَعهَا الأبديَّ من غيٍّ ، وتمرُّدٍ ، وسفاهةٍ ، وأرسَلها إليَّ مقتولةً يردُّها عَلَيَّ .

بدرني ، وتألَّه ، كأنَّما يقول : إنَّ له نصفَ الأمر ، ولي النِّصف : أنا أحييْتُ ، وهو أمات . . . !

بَدَرَني عَبْدي بنفسِه ، فحرَّمتُ عليه الجنَّة !

قال الشَّعبيُّ : وإنَّما تحرم الجنَّةُ على من يقتل نفسَهُ ؛ إذ ينقلبُ إلى الله وعلى

---

(١) « المشقص » : سهم فيه نصلٌ عريض . (ع) .
(٢) رواه ابنُ حبان (٣٠٨٢) .
(٣) رواه البخاري (١٣٦٥) .
(٤) رواه البخاري (١٣٦٣) ومسلم (١١٠) .
(٥) رواه البخاري (١٣٦٤) ومسلم (١١٣) .

روحه جِنايةُ يده ، ما تُفارِقُها إلى الأبد : فهو هناك جِيفةٌ من الجِيَف مسمومةٌ أبداً ، أو مخنوقةٌ أبداً ، أو مذبوحةٌ أبداً ، أو مهشَّمةٌ أبداً ، يقول الله له : أنت بَدَرْتَني بنفسك ، وجريتَ معي في القَدَر مجرًى واحداً ، فستخلد نفسُك في الصُّورة التي هي من عملك ، وما قتلتَ إلا حسَنَاتِك .

قال الشَّعبيُّ : ولو عرف قاتلُ نفسه أنَّه سيصنع من نفسه جيفةً أبديَّةً ، فمن ذا الذي يعرف : أنَّه إذا فعل كذا وكذا تحوَّل حماراً ، وبقي حماراً ، فيرضَى أن يتحوَّل ، ويُسرعَ ؛ ليتحوَّل ؟

مِن ذلك نظر النَّبيُّ ﷺ إلى جنازة ذلك الرَّجل الذي قتل نفسه ، كما ينظر إلى ذبابةٍ توجَّهت بالسَّبِّ إلى الشَّمس ، والكواكبِ ، والأفلاكِ كلِّها ، ثُمَّ جاءته تقول له : اشهدْ لي .

* * *

قال الشَّيخ : وممَّ يقتل الإنسانُ نفسه ؟ أمَا إنَّ الموتَ آتٍ ، لا ريب فيه ، ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه ، هو الخيبةُ الكُبرى تُلْقى على هذه الحياة ؛ فما ضررُ الخيبة الصَّغيرة في أمرٍ من أمور الحياة ؟

إنَّ المرء لا يقتل نفسه من نجاحٍ ، بل من خيبة ، فإن كانت الخيبةُ من مالٍ ؛ فهي الفقر ، أو الحاجة ، وإن كانت من عافيةٍ ؛ فهي المرضُ ، أو الاختلال ، وإن كانت من عِزَّة ؛ فهي الذُّلُّ ، أو البؤس ، وإن كانت ممَّا سوى ذلك ـ كالنِّساء وغيرهنَّ ـ فهي العجز عن الشَّهوة ، أو التَّخيُّلُ الفاسد .

وليس يخيبُ الإنسانُ إلا خيبةَ عقلٍ ، أو إرادة ، وإلا فالفقرُ ، والحاجة ، والمرضُ ، والاختلال ، والذُّلُّ ، والبؤس ، والعجز عن الشَّهوة ، وفسادُ التَّخيُّل ، كلُّ ذلك موجودٌ في النَّاس ، يحمله أهلُه راضين به ، صابرين عليه ، وهو الغبار النَّفسيُّ لهذه الأرض على نفوس أهلها . ويا عجباً ! إنَّ العُميانَ هم بالطَّبيعة أكثرُ النَّاس ضحكاً ، وابتساماً ، وعبثاً ، وسخريةً ، أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصحَ من ذلك ؟

ليست الخيبةُ هي الشَّرُّ ، بل الشَّرُّ كلُّه في العقل إذا تبلَّد ، فجمد على حالةٍ واحدةٍ من الطَّمع الخائب ، أو في الإرادة إذا وَهَنَت ، فبقيتْ متعلقةً بما لم يُوجَد .

أفلا ترون : أنَّه حين لا يُبالي العقلُ ، ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنًى ، ولا أثرٌ في النَّفس ، ولا يخيب الإنسانُ حينئذٍ ، بل تخيب الخيبةُ نفسُها ؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهله التَّرفَ العقليَّ ، والتَّخيُّلَ الفاسد ، ويشتدُّ كلَّ الشِّدة في أمر الإرادة ، فلا يترخَّص في شيءٍ يتعلَّق بها ، ولا يزال يُنَمِّيها بأعمالٍ يوميَّة تشدُّ منها ؛ لتكونَ رقيبةً على العقل ، حارسةً له ، فإنَّ للعقل أمراضاً كثيرةً يقيس فيها درجاتٍ من الطَّيش حتَّى يبلغَ الجنونَ أحياناً ؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل ؛ هي لِينُه إذا تصلَّب ، وهي حركتُه إذا تبلَّد ، وهي حِلْمُه إذا طاش ، وهي رضاه إذا سَخِط .

الإرادة شيءٌ بين الرُّوح والعقل ، فهي بين وجودَين ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودَين أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو في الدُّنيا كالمنفصل عنها ؛ إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روحه ، وأكبرُ همِّه نجاحه في هذا الوجود .

وهذا النَّجاح لا يأتي من المال ، ولا تُحقِّقه العافية ، ولا تُيسِّره الشَّهوات ، ولا يُسَنِّيه[1] التَّخيلُ الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغُرور ، ولا مما عُمُرُه خمسون سنة ، أو مئة سنة ؛ بل يأتي مما عُمْرُه الخلود ، وممَّا هو باقٍ أبداً في معانيه من الخير ، والحقِّ ، والصلاح ، فهاهنا يُعين المرضُ بالصَّبر عليه مما لا تعين الصِّحة ، ويُفيد الفقرُ بحقائقه ما لا تفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الإنسانيُّ عاملاً أكثر ممَّا هو متخيِّلٌ ، وقانعاً أكثر ممَّا هو طامعٌ ؛ وهاهنا لا موضعَ لغلبة الشَّهوة ، ولا كبرياء النَّفس ، ولا حُبِّ الذَّات ؛ وهذه الثلاثُ هي جالبةُ الشَّقاء على الإنسان حتَّى في أحوال السَّعادة ، وبدونها يكون الإنسانُ هانئاً حتَّى في أحوال الشَّقاء .

بالإرادة المؤمنةِ القويَّة ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائقِ العالم ، وصلاحِ النَّفسِ بها ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذَّكاءُ إلى خيال الإنسان ، وفسادِ الإنسان .

وإذا انصرف الذَّكاء إلى حقائق الدُّنيا ؛ كان العقل سهلاً ، مَرِناً ، مِطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرةَ قتل النَّفس ، أو يُقرَّها ، فإنَّ هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَستطْرِق إلى العقل إلا إذا تحجَّر ، وانحصر في غرضٍ واحدٍ قد خاب ، وخابت فيه الإرادةُ ، ففرغَت الدُّنيا عنده .

---

(١) « يسنيه » : تسنَّى له الأمر : تيسَّر ، وتهيَّأ .

ولو أنَّ امرأً تمَّ عزمُهُ على قتل نفسه ، ثُمَّ صَابَرَ الدُّنيا أياماً ؛ لانْفسَح عزمُه ، أوْ ركَّ(١) ؛ إذ يلين العقلُ في هذه المدَّة نوعاً ما ، ويجعلُ الصَّبرُ بينه وبين المصيبة مسافةً ما ، فتتغيَّر حالةُ النَّفس هَوْناً ما ؛ فالصَّبرُ كالتروُّح بالهواء على العقل الَّذي يكاد يختنق من احتباسه في معنىً واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبه « ومَثَلُ العقل في هذه الحالة مثَلُ القائم في إعصارٍ لفَّه بالتُّراب لفّاً ، وسدَّ عليه مَنَافِذَ الهواء ، حبسه في هذا التُّراب الملتفِّ حَبْسَ الحشرةِ في جوف القَصبة ؛ فهو على اليقين : أنَّها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ في الزَّمن ، لا حالةُ الزَّمن ، وأنَّ الهواء الَّذي جاء بهذا الهمِّ هو الَّذي يذهب بهذا الهمِّ .

وكما أنَّ الأرض هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصار الثَّائر منها ، فالحياة كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائها .

* * *

قال الإمام : وفي كتاب الله آيتان تدلان على : أنَّه كتابُ الدُّنيا كلِّها ؛ إذْ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثالُ الرُّوحيُّ للفرد الكامل ، والآخر المثال الرُّوحيُّ للجماعة الكاملة .

أمَّا الآية الأولى ؛ فهي قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وأمَّا الثانية ؛ فهي قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ففي رجاء الله ، واليوم الآخر يتسامى الإنسانُ فوق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومُها حولَه ، ولاتصدِمه ؛ إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأنْ لا سلطانَ لها عليه ، وهذه الهموم تجد في مثل هذه النَّفس قُوَى بالغةً تصرِّفها كيف شاءت ، فلا يجيء الهمُّ قوةً تسحق ضعفاً ، بل قوةً تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها ؛ لتكون عملاً ظاهراً يقلِّده النَّاسُ ، وينتفعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوة وحدَها هي علم الحياةِ .

---

(١) « ركَّ » : ركَّ الشيءُ : ضعف ورقَّ .

وقد ترى الفقير من النَّاس تحسبه مسكيناً ، وهو في حقيقته أستاذٌ من أكبر الأساتيذ ، يلقي على النَّاس دروسَ نفسه القويَّة .

وفي رجاء الله ، واليوم الآخر يبطل أكثرُ أسباب الشَّرِّ في النَّاس ، وهو نظَرُ الإنسان لمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدُّنيا نظراً لا يبعث إلا الحقدَ والسَّخط ، فينظر المؤمن حينئذٍ إلى ما في النَّاس من الخير ، والصَّلاح ، والإيمان ، والحقِّ ، والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السُّرور ، والغبطة . ومَن جَعلها في تفكيره أبطل أكثر الدُّنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروقُ بين النَّاس عاليهم ، ونازلهم ؛ كالرَّجل الفقير العالم إذا قُدِّم على الغنيِّ العالم ؛ جَمع بينهما الاتِّفاق العقليُّ ، وسقط ما عداه .

وفي رجاء الله واليومِ الآخر يعيش الإنسان عُمْرَه الطَّويل أو القصير ، كأنَّه في يوم يُصبح منه غادياً على الحشر ، والحساب ؛ فهو متَّصلٌ بالخلود غيرُ مَعْنِيٍّ إلاَّ بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضُه ، وآلامُه ، ومصائبُه ليست مَكَارِهَ من الدُّنيا ، بل هي تلك المكارِهُ ؛ الَّتي حُفَّت الجنَّةُ بها ؛ ولا يضرُّه الحرمان ؛ لأنَّه قريب الزَّوال ، ولا يغُرُّه المتاع ؛ لأنَّه قريب الزَّوال أيضاً .

وفي رجاء الله واليومِ الآخر يَسودُ الإنسان على نفسه ؛ وَمَنْ كان سيِّدَ نفسِه كان سيِّدَ ما حولها ، يُصَرِّفه بحكمهِ ، ومن كان عَبْدَ نفسِه ؛ صَرَّفَه بحكمهِ كلُّ ما حَوْله .

قال الشَّعبيُّ : وأمَّا المثالُ الرُّوحيُّ للجماعة الكاملة ، فهو في وصف المؤمنين بأنَّهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان .

إنَّ أكثر ما يضيق به إنسان يكون مِنْ قِبَلِ مَنْ حوله ممَّن يُعايِشُهم ، ويتَّصل بهم ، لا مِنْ قِبَلِ نفسِه ، فإذا قام اجتماعُ أمَّةٍ على : أنَّهم (رُحَمَاءُ بينهم) تقَرَّرت العظَمةُ النَّفسيَّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يَحْقِروا الفقيرَ بفقره ، ولم يُعَظِّموا الغنيَّ لغِناه ، وإنَّما يُحَقِّرُون ، ويعظِّمون لصفاتٍ ساميةٍ ، أو حقيرةٍ . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصَّابرُ أعظمَ قدراً من الغنيِّ الشَّاكر ، وإعظامُ النَّاسِ لفضيلةِ الفقير هو الذي يجعل فقرَه عند نفسه شيئاً ذا قيمةٍ في الإنسانيَّة .

ومتى تَصحَّحتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلمة للنَّاس بَطَلَ ألمها ، واستحالت معانيها ، وصار لا يَبلَى معنىً من معاني الحياةِ في إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه

معنىً جديداً في مكانِه ، وتصبح الفضيلةُ وحدَها غايةَ النَّفس في الجميع ؛ وبذلك يَصبر الفردُ على مصائبه ، لا بقُوَّته وحده ، ولكن بجميع القوَى ؛ الَّتي حوله . أفَلا تَرَوْنَ : أنَّ إعجاب النَّاس بالشَّجاعة ، وتعظيمَهم صاحبَها يضع في ألَم السِّلاحِ لذةً يُحسُّها لحمُ الشُّجاعِ البطل ؟

* * *

قال المسيَّب بن رافعٍ : فقام رجلٌ من المجلس ، فقال : أيُّها الشَّيخ ! وإذا فَسد النَّاس ، وغَلُظَتْ قلوبُهم ، وتقطَّعتْ بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحَمَاء بينهم) ؛ وشَمِتوا بالفقير ، وتهزَّؤوا بالمُبتلَى ، وطرحوه في ألسنتهم كما يَطرَح الشَّاعر في لسانهِ رَجُلاً يهجوه ، لا يكفُّ عنه ، فما عسى أن يصنعَ المسكينُ حينئذٍ ؛ وكلُّ شيءٍ يدفعه إلى قتل نفسه .

وقال الشَّعبيُّ : ها هنا الرَّجاءُ في الله واليومِ الآخرِ ، وهو شعورٌ لا يُشترى بمالٍ ، ولا يُلتمسُ من أحدٍ ، ولا يَعْسُرُ على من أراده ؛ والفقيرُ ، والمُبتلَى وغيرُهما إنَّما يَصنع كلٌّ منهم مِثالَه السَّامي ؛ فالصَّبر على هذا العَنَت هو صبرٌ على إتمام المِثال ، وإذا وقع ما يسوءك ، أو يَحزُنُكَ ، فابحث فيه عن فكرته السَّامية ، فقلَّما يخلو منها ، بل قلَّما يجيء إلا بها[١] .

قال المسيَّب : فقام آخر ، فقال : وكيف يصنع امرُؤٌ آلتْ أحوالُ الدُّنيا إلى ما يُخيفه ، أو بَلَغ الهمُّ مبلَغه من قلبه ، فهمَّ أن يقتلَ نفسه ؟

قال الشَّعبيُّ : فليجعل الخوفَ خَوْفَيْنِ : أحدُهما خوفُه عذابَ اللهِ خالداً مخلَّداً فيه أَبداً ؛ فَيَذْهَبُ الأقوى بالأضعف . وإذا ابتُلي ؛ فليضمَّ إلى نفسه مَن هو أشدُّ بلاءً منه ؛ ليكون همُّهُ أحدَ همَّيْن ، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفِّ .

إنَّ الإنسانَ ونفسَه في هذه الحياة كالذي أُعطِيَ طفلاً نَزِقاً ، طَيَّاشاً ، عارِماً ، متمرِّداً ليؤدِّبَه ، ويُحْكِمَ تربيتَه ، وتقويمَه ، فيثبت بذلك : أنَّه أُستاذٌ ، فيعطَى أجرَ صبرِه ، وعمله ، ثم يضيقُ الأُستاذُ بالطِّفل ساعةً ، فيقتله . أكذلك التأديب والتَّربية ؟!

* * *

(١) في كتابنا (المساكين) كلامٌ كثير في هذه المعاني . (ع) .